

خطبه الجمعة - الخطبة ٠٣٠١ : خ ١ - البيت المسلم ٢- فطرة الآباء ، خ ٢ - حنان الأم وحليبيها .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١١-٠٥-١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وما توفيقي
ولا اعتصامي ولا توكلي إلا على الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته
وإرغاماً لمن جدد به وكفر ، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، رسول الله سيّد الخلق
والبشر ، ما اتصلت عينٌ بنظرٍ أو سمعت أذنٌ بخبر ، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ،
وعلى آله وأصحابه ، وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين ، اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ،
ولا تعذبنا فإنك علينا قادر ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شيء قدير ، اللهم
علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل
باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك
الصالحين .

الطبع و التكليف :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ لا زلنا في البيت المسلم ، لو أن الإنسان تأمل في تلك الطبيعة البشرية التي
طبع الإنسان عليها ، كيف أن الأب والأم مفطوران على حُبِّ الولد ، فإن كل رعايتهما ، وكل
عطفهما ، وكل حنانهما ، وكل رحمتها إنما هي فطرة فطرا عليها ، فليس في القرآن الكريم آية
واحدة تدعو الآباء والأمهات إلى أن يرحموا الأبناء ؛ لأن هذا فطرة في طبع الإنسان ، رحمة بهذا
الإنسان ، و لأنه استمرار للنوع الإنساني ، وضمان لتربية الصغار ، أودع الله عز وجل في كل أب
وفي كل أم دَفَقَةً من العطف ، والحنان ، والرحمة ، والعناية ، والشفقة ، والرأفة بأولادهما .

ولكن بر الآباء تكليف ، والآن نستخدم
هذين المصطلحين ؛ طبع و تكليف ،
رحمة الآباء بالأبناء طبع ، وبرُّ الأبناء
بالآباء تكليف ، ومن أجل أن تتحقق
العدالة فكل أب كان طفلاً ، تلقى رحمةً
من أبويه ، تلقى عطفاً ، وعليه أن يرُدَّ



أودع الله في كل أب وأم عطف وحنان ورأفة بأولادهما

هذا الذي تلقاه منهما بحكم الفطرة عليه أن يردّه بحكم التكليف .
 فإيا أيها الأخوة المؤمنون ؛ لو تأملتم في بديع صنْع الله عز وجل ، أية أم ؛ مؤمنة ، غير مؤمنة ،
 مستقيمة ، غير مستقيمة ، تعرف الله ، لا تعرف الله ، أية أم أودع الله في قلبها العطف والرحمة
 والحنان ، ضمناً لتربية الأولاد ، استمراراً للنوع البشري ، هذه فطرة في الإنسان ، والشيء الذي فُطِرَ
 عليه الإنسان لا يُكَلَّفُ به ، فالإنسان مفطورٌ على حب الطعام والشراب ، فإذا أُقْبِلَ على الطعام
 والشراب لا يرقى بهذا لأنه مفطورٌ عليه ، مفطورٌ على حب المال ، فإذا أخذ المال لا يرقى ، ولكن
 دفع المال تكليف ، أن ينظر إلى امرأة في الطريق هذا مما حَبَّبَ الله إليه .

﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾

[سورة آل عمران : ١٤]

ولكن غَضَّ البصر تكليف ، والإنسان لا يرقى إلا بالتكليف ، إذا عاكس فطرته، إذا عاكس ما
 أودعه الله فيه ابتغاء مرضاة الله عز وجل عندئذ يرقى ، يرقى الإنسان بغض البصر ، ويرقى بدفع
 المال ، ويرقى ببر الوالدين ، ويرقى بالسكوت عن الغيبة والنميمة ؛ طبيعة النفس تحب أن تسترسل
 في الحديث عن الناس ، فإذا ألجمها الإنسان يرقى ، التكليف في أصلها تُخالف طبيعة النَّفْسِ ، من
 أجل أن يرقى الإنسان إلى الله عز وجل ، فبر الآباء بالأبناء طبعٌ ، ولكن بر الأبناء بالآباء تكليف
 . فذلك لو تأملتم صنع الله عز وجل لوصلتم إليه ، ولو تأملتم طبيعة الإنسان ؛ كيف أن الأب والأم
 شغلها الشاغل ، أهدافهما ، طموحاتهما ، أن يكون أبنائهما في أجمل حال ، في أهدأ حال ، في
 أرقى حال ، هذا من عجيب صنْع الله عز وجل ، أودع في قلوب الآباء والأمهات تلك الرحمة ،
 وأمر الأبناء أن يردّوا على هذه الرحمة ، ببر الآباء والأمهات .

مخالفة النفس و الهوى سبب رقي الإنسان :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَيْنِ﴾

[سورة آل عمران : ١٤]

فالابن محبوب . آية ثانية :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

[سورة الكهف : ٤٦]

﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾

[سورة الإسراء : ٦]



هذه نعمةٌ يستحق الله عليها الشكر ،
والدعاء القرآني :

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ﴾

[سورة الفرقان : ٧٤]

لا تفر العين إلا إذا كانت الزوجة سالحةً ، والابن باراً ، هذه طبيعة الإنسان ، هذه فطرة الله التي
فطرَ الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله .

إذاً : يا أيها الأخوة المؤمنون ؛ من خلال هذه المقدمة التي ملخصها أن محبة الآباء للأبناء طبعٌ ،
بينما برّ الأبناء بالآباء تكليف ، والطبع لا ترقى به ، إقبالك على الطعام لا يجعلك ترقى عند الله
عز وجل ، إطلاق البصر في المُحرّمات هذه معصية ولا ترقى بها ، لكنك ترقى بغض البصر ،
قبض المال لا ترقى به ، ولكنك ترقى بإنفاق المال ، أن تحب الشيء الآجل لا ترقى به ، الله
سبحانه وتعالى خلّق الإنسان عجولاً ، فإذا أثر العاجلة على الآجلة يرقى، في ملخّص الموضوع أن
الإنسان لا يرقى إلا إذا خالف نفسه وهواه .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

[سورة النازعات : ٤٠-٤١]

ضرورة معرفة حقّ الكبير ورحمة الصغير :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ ما دامت الرحمة بالأولاد شيء فطر الله الناس عليه ، إذاً من لم يجد عنده
هذه الرحمة فهذه حالة شاذة ، حالة مرضية ، النبي عليه الصلاة يقول في حديثٍ صحيح ، رواه
الإمام الترمذي :

((ليس منا))

أي نفي انتماءه للإسلام ، أي ليس مسلماً ، وحيثما قرأتم في الأحاديث الشريفة أحاديث كثيرة مفتوحة
بقوله عليه الصلاة والسلام :

((ليس منا))

فهذا شيء من الكبائر الذي ينفي عن المسلم إسلامه ، وينفي عن المؤمن إيمانه ، بل ينفي أن
ينتمي مثل هذا الإنسان الذي يفعل هذا الفعل إلى ملة النبي عليه الصلاة والسلام :

((من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حق كبيرنا فليس منا))

[من الدر المنثور عن عبد الله بن عمرو]

الكبير يُعرف حقه ، يحترم ، والصغير يُرحم ، هذا مما أراده النبي عليه الصلاة والسلام تقريراً لفطرة فطر الناس عليها .

شعور الأب نموذج مصغر جداً عن رحمة الله سبحانه وتعالى :

شيء آخر . . الإمام البخاري روى عن أبي هريرة رضي الله عنه حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

((أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً - أتى النبي مفعول به مُقَدَّم ، أي أتى رجلاً النبي عليه الصلاة والسلام - ومعه صبي فجعل يَضُمُّه إليه - تعبيراً عن رحمته به - فقال عليه الصلاة والسلام : أترحمه ؟ قال : نعم ، فقال : فالله أرحم بك منك به))

[البخاري عن أبي هريرة]

حديثٌ دقيق ولا سيما هذا الحديث موجهٌ إلى الآباء والأمهات ، ما شعورك تجاه طفلك الصغير ؟ إنه قطعة منك ، إنه فلذة كبدك ، تحب أن تجوع ويشبع ، تحب أن تعرى ويكتسي ، تحب أن تخفض ويرتفع ، هذا الشعور ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((فإن الله أرحم بك منك به وهو أرحم الراحمين))

بل إن بعض الأحاديث الشريفة تقول : إن النبي عليه الصلاة والسلام رأى امرأة تُقبل ابنها ، وهي تخيز على التور فقال عليه الصلاة والسلام :

((فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها))

[من مختصر تفسير ابن كثير عن عمر]

فإذا أردت التعمق كأن الله سبحانه وتعالى جعل من علاقة الآباء بالأبناء درساً بليغاً تعرف به طرفاً من محبة الله بخلقه ، من رحمته بهم ، شعورك أنت تجاه ابنك العاصي، تجاه ابنك العاق ، تتمنى له كل خير ، تتمنى أن يعود إليك ، لو عاد إليك تنسى كل الماضي ، شعور الأب نموذج مصغر جداً جداً عن رحمة الله سبحانه وتعالى قال :

((أترحمه ؟ قال : نعم ، فقال : فالله أرحم بك منك به وهو أرحم الراحمين))

العطف البليغ بين الآباء والأبناء فطرة :

ولقد روى الإمام البخاري أيضاً حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبعض من شاهده :

((قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أُنْقَبَلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟ فَقَالُوا : نَعَمْ ، فَقَالُوا : لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقَبَّلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَأَمَّا لِكِنَّ اللَّهَ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ))

[متفق عليه عن عائشة]

أَيُّ أَنَّ هَذَا الْعُطْفَ الْبَلِيغَ بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ فَطْرَةً ، فَمَنْ خَالَفَ الْفِطْرَةَ فَهَذِهِ حَالَةٌ مَرْضِيَّةٌ شَاذَةٌ ، وَلَا يَنْتَمِي إِلَى هَذَا الدِّينِ بِأَيِّ أَنْوَاعِ الْإِنْتِمَاءِ . وَلَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ((قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَفْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسٌ ، فَقَالَ الْأَفْرَعُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لِي عَشْرَةٌ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ؟ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظْرَةً عَجَبَ وَقَالَ : مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

وفي الحديث القدسي :

((إِنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ رَحْمَتِي فَارْحَمُوا خَلْقِي))

[كنز العمال عن أبي بكر]

وقد روى الإمام البخاري أيضاً في حديث صحيح ، قال : جاءت امرأة إلى السيدة عائشة ، أعطتها عائشة ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبي لها ثمرة ، وأمسكت لنفسها ثمرة ، فأكل الصبيان التمرتين ونظرا إلى أمهما ، فعمدت الأم إلى التمرة فشققنها نصفين ، فأعطت كل صبي نصف ثمرة - وحرمت نفسها نصيبها- فجاء النبي عليها الصلاة والسلام فأخبرته السيدة عائشة بما رأت من هذه المرأة ، فقال : وما يعجبك من ذلك ؟- أي ما المغزى من هذه القصة ؟ ما الذي لفت نظرك منها ؟ ما موطن العجب ؟ أين كان مركز الثقل في هذه القصة ؟ - فقال عليه الصلاة والسلام :

((لَقَدْ رَحِمَهَا اللَّهُ بِرَحْمَةٍ صَبِيهَا))

والحديث الذي أرويه كثيراً من أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((أول من يمسك بخلق الجنة أنا - أي أول إنسان يدخل الجنة هو النبي عليه الصلاة والسلام

- قال : فإذا امرأة تنازعتني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ؟ - طبعاً هي لا

تعرفه ، هكذا سياق الحديث - قال : يا رسول الله إنها امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً فأبت

الزواج من أجلهم))

[مجمع الزوائد عن أبي هريرة]

رعاية لحقهم ، رحمة بهم ، تأليفاً لقلوبهم ، جمعاً لشملهم ، تصفية لمشاعرهم ، أبت الزواج من أجلهم.

المالك الحقيقي لكل شيء هو الله سبحانه و تعالى :

شيء آخر الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى رويها معاً حديثاً منقولاً عليه عن أسامة بن زيد نص الحديث :

((أرسلت بنت النبي عليه الصلاة والسلام إلى أبيها أن ابني قد احتضر - أي دخل في مراحل النزاع - فاشهدنا - أي احضر معنا يا أبت يا رسول الله ، يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في أمر شديد الخطورة مع أصحابه - فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى ابنتها يقرأها السلام ويقول لها - وهذا الحديث يحلُّ مشكلات الناس جميعاً - يقول لها : إن الله ما أخذ وله ما أعطى))

[متفق عليه عن أسامة بن زيد]

هذا يُطبَّق على الأولاد ، وعلى الزوجة ، وعلى الأموال ، ضاع من مالك شيء ، له ما أخذ ، أعطاك شيء له ما أعطى ، كل شيءٍ تنعم به إنما هو ملكُ الله سبحانه وتعالى ،

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ ﴾

المالك الحقيقي لكل شيءٍ هو الله سبحانه وتعالى ، فإذا أعطاك مالاً فهو عارية مستردة .



مالك هو عارية مستردة والله هو المالك الحقيقي له

سُئِلَ أعرابيٌّ وببده قطيع من الإبل ، لمن هذه الإبل ؟ - فقال العلماء : أجاب إجابة تعد أبلغ إجابة في اللغة - قال : لله في يدي ، الله هو مالك المُلْك وضعها في يدي عارية مستردة ، فالمال الذي معك لله عز وجل ، ومعنى الله أي هو قادرٌ أن يأخذه منك بسببٍ صغير جداً ، أو أن يعطيك أضعافاً مضاعفة ، فهذا الذي يبخل بمال الله عز وجل من أن ينفقه محدود التفكير ، مُنْطَمِس البصيرة . إن الله ما أخذ وله ما أعطى ، طبَّقها على الصِحَّة ، اعتلت الصحة ، استرد الله عز وجل شيئاً ، أعطاك صحَّةً له ما أعطى ، استرد شيئاً ، له ما أخذ ، طبَّقها على الصحة ، طبَّقها على الدَّخْل ، على المال ، على الزوجة ، على الأولاد ، على كل شيء ، هذا هو التوحيد ، فقال عليه الصلاة والسلام أرسل إلى ابنته من يقرأها السلام ، ويقول لها :

((إن الله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيءٍ عنده بأجلٍ مسمى فلتصبر ولتحتسب))

فأرسلت إليه تقسم عليه لِيَأْتِيَنَّ ، يبدو أنها مُضطربة ، فقام عليه الصلاة والسلام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل ، فرفع النبي عليه الصلاة والسلام الصبي الذي يحتضر ، وأجلسه في حجره ، ونفسه تُقَعِّع ، أي على وشك الموت ، ففاضت عينا رسول الله بالدموع ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ أي أتبكي ؟ فقال :

((يا سعد هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء))

أولادك أولى خلق الله برحمتك :

مرة ثانية : إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ، وأولى خلق الله برحمتك أولادك ، لذلك النبي الكريم يقول :

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

وفي حديث آخر :

((درهمٌ تنفقه في سبيل الله ، ودرهم تنفقه كذا وكذا - الحديث طويل - ودرهمٌ تنفقه على أهلك ، أفضلها ذلك الدرهم الذي تنفقه على أهلك))

لماذا ؟ لأن الآخرين أنت لهم ، وغيرك لهم ، أما أولادك فليس لهم غيرك ، من دون أن يُفهم من هذا أن تنفق عليهم إسرافاً وتبذيراً ، هذا لا يرضي الله عز وجل ، الوضع الأمثل :

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

[سورة الإسراء : ٢٩]

المساواة بين المرأة و الرجل في التكليف و التشريف :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ موضوع آخر متعلق بالبيت الإسلامي ، من عادات الجاهلية التي جاء الإسلام ليقتضي عليها ؛ كراهية البنات ، فالإسلام لم يفرق بين ذكرٍ وأنثى ، ولا بين امرأة ورجل . .
﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾

[سورة آل عمران : ١٩٥]

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

[سورة الأحزاب : ٣٥]

لو أن الله قال : " إن المسلمين " لشملت المسلمات بحكم قواعد الأصول ، أو بحكم التعليل ، ولكن أراد الله من هذه الآيات أن يؤكد لنا أن المرأة والرجل سواء عند الله ، وأن الطفل والطفلة ، والذكر والأنثى ، والبنات والصبي سواء عند الله عز وجل ، بل إن بعض الفقهاء استنبط أن المرأة والرجل ، أو الصبي والصبية ، أو الصغير والصغيرة ، أو البنت والصبي ، أن هؤلاء متساويان في التكليف والتشريف ، ولكن المرأة صُممت بنيتها النفسية ، بنيتها العقلية ، بنيتها الجسمية تصميماً يتوافق مع خطورة وظيفتها في الحياة ، وإن الرجل صُمم تصميماً في بنيتها العقلية والجسمية والنفسية يتوافق مع وظيفته في الحياة ، فليس هناك فرق بين المرأة والرجل من حيث التكليف والتشريف .

الانتمار بأمر الله في تربية الأولاد و حسن تنشئتهم :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾

[سورة المائدة : ٨]

وهذا الذي جاء النبي يستشهده على أنه نحل ابنه نَحْلَةً فقال عليه الصلاة والسلام:

((أكلهم وهبت مثل هذا ؟ فقال : لا ، قال : أشهد غيري فإني لا أشهد على جور))

[من الجامع لأحكام القرآن]

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾

[سورة المائدة : ٨]

وأصحاب السنن ، والإمام أحمد ، وابن حبان كلهم رووا عن النعمان بن البشير قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((اعدلوا بين أولادكم ، اعدلوا بين أولادكم ، اعدلوا بين أولادكم))

رواه النبي ثلاث مرات :

((اعدلوا بين أولادكم ، اعدلوا بين أولادكم ، اعدلوا بين أولادكم))



الله سبحانه وتعالى وصف تفضيل الذكور على الإناث ، أو تفضيل بعض الأبناء على بعض الأبناء بأنها من الجاهلية ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

[سورة النحل : ٥٨-٥٩]

جاءت النبي عليه الصلاة والسلام ابنته السيدة فاطمة حينما ولدت ضمَّها وشمَّها وقال :

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

هكذا المؤمن ، هكذا المسلم . ريحانة أشمها وعلى الله رزقها .

في القرآن الكريم آية دقيقة تردّ على هؤلاء ، قال تعالى :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

[سورة الشورى : ٤٩-٥٠]

أن يَهَبَكَ الله ذكراً أو أنثى ، أو ذكوراً أو إناثاً ، أو ذكوراً وإناثاً ، أو ألا يهبك شيئاً، هذا من تقدير العليم القدير ، ولا حيلة لك بذلك إطلاقاً ، لذلك المؤمن يستسلم ، ويرى أن الذي رزقه هو قسمة له ، وهو راضٍ بهذه القسمة ، وعليه أن يَأتمر بأمر الله تعالى في حسن التربية وحسن التنشئة .

أميراً من أمراء العرب طمح إلى غلام ، فأنجبت له امرأته بنتاً ، فغضب غضباً شديداً ، وتألّم ألماً لا حدود له ، وترك بيت الزوجية ، وذهب إلى بيوت أخرى ، بيوت أقربائه ، غاب عن امرأته سنّة ، بعد سنة مرّ أمام بيته فسمع امرأته تداعب ابنتها الصغيرة ، التي ولدت منه ، تقول لها :

ما لأبي حمزة لا يأتينا أغضبان ألا نلد البنينا؟

يظل في البيت الذي يلينا تالله ما هذا بأيدينا

ونحن كالأرض لزارعينا وإنما نعطي الذي يعطينا

* * *

وقد أثبت العلم أن تحديد نوع المولود كذكرٍ أو أنثى لا علاقة للأُنثى به إطلاقاً ، إن علاقته مع الحوين الذي يفدنه الرجل ، ولا علاقة للبويضة إطلاقاً ، ويأتي القرآن الكريم ليقول:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾

[سورة النجم : ٤٥-٤٦]

لا من بويضة ، أن يكون هذا المولود ذكراً أو أنثى هذا يتحدّد من قِبَلِ الرجل ، لا من قِبَلِ المرأة ، فهذه المرأة بفطرتها أو بحاستها السادسة قالت :

ونحن كالأرض لزارعينا وإنما نعطي الذي يعطينا

* * *

عندئذٍ دخل إلى بيته ، وعطف على امرأته ، وأقام معها بقية حياته .

البنات بابٌ من أبواب الجنة :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ روى الإمام مُسلم عن أنس بن مالك ، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :
(من عال جاريتين - أي بنتين صغيرتين - حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين . وضم أصابعه عليه الصلاة والسلام))

[مُسلم عن أنس بن مالك]

من عال جاريتين ، أي ربّاهما تربية حسنة ، رباها على حب الله وحب رسوله وقراءة القرآن ، وجعل لباستها وفق ما يرضي الله عز وجل ، وعلمهما أمر دينهما .

((من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ، وضم أصابعه))

[مُسلم عن أنس بن مالك]

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عُقبَة بن عامر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :
**((من كان له ثلاث بناتٍ فصبر عليهن ، وسقاهن ، وكساهن من جدته - أي من ماله - كن له
حجاباً من النار))**

[أحمد عن عُقبَة بن عامر]

وفي حديثٍ آخر :

**((من كان له ثلاث بناتٍ أو ثلاث أخواتٍ - هذا الذي عنده أختٌ عانس لا يتبرم بها - أو بنتانٍ
أو أختان فأحسن صحبتهن ، وصبر عليهن ، واتقى الله فيهن دخل الجنة))**

[أحمد عن ابن عبّاس]

معنى ذلك أن البنات بابٌ من أبواب
الجنة ، كيف أن برَّ الوالدين باب من
أبواب الجنة ، كيف أن النبي عليه
الصلاة والسلام صَعَدَ المنبر فقال :
**((رغم أنف رجلٍ أدرك والديه عند الكبر
أو أحدهما فلم يدخله الجنة))**

[الجامع لأحكام القرآن عن أبي هريرة]



معنى ذلك أن بر الوالدين بابٌ من أبواب الجنة ، وأن حسن تربية البنات بابٌ من أبواب الجنة . ورد
في بعض الأحاديث أن البنت التي ربّأها أبوها تربيةً حسنة ، يقال لها : ادخلي الجنة . تقول : لا
أدخل الجنة حتى أدخل أبي معي ، فيقال : خذيه وادخلي الجنة ، أما البنت التي ربّأها تربيةً سيئة
وأهملها ؛ فشطت وشردت وانحرفت وفتنت الناس تقول : يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي
، لأنه كان سبباً لي في هذا الفسق والفجور .

بيت الحمد لمن فقد ابنه صغيراً وصبر واحتسب :

أيها الأخوة الأكارم ؛ بقي موضوعٌ أخير ، الولد غالٍ جداً ، ومع ذلك قد يُقدَّر الله عز وجل موت أحد
الصغار ، ما موقف المسلم ؟ الإمام الترمذي وابن حبان رويَا عن أبي موسى الأشعري عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم فيقول الله تعالى: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع - أي قال الحمد لله أنا لله وإنا إليه راجعون - فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد))

[الترمذي وابن حبان عن أبي موسى الأشعري]

بيت الحمد لمن فقد ابنه صغيراً وصبر واحتسب ، والقصة التي تعرفونها جميعاً ؛ قصة الصحابية الجليلة أم سليم ، التي كانت زوجة لأبي طلحة ، والتي رواها الإمام البخاري ومسلم : كان لهما ابنٌ مريض ، خرج أبو طلحة لحاجته وعاد ، فسأل امرأته : كيف حال فلان ابنه ؟ فقالت : يا أبا طلحة إنه في أهدأ حال ، هو قد مات ، ولكن أوهمته أنه مستريح ، صنعت له طعاماً فأكل ، وتزينت فأصاب منها . وفي الصباح قالت له : يا أبا طلحة لو أن الجيران أعطونا عاريةً مستردة ، ثم طلبوها منا ، أفي ذلك وجلٌ أو غضب ؟ قال : لا ، إنها حاجتهم ، قال : فكذلك الله عز وجل استرد عاريته ، ابننا فلان .

أبو طلحة غضب غضباً شديداً ؛ لماذا أخفت عنه زوجته هذا الخبر ؟ لماذا جعلته يأكل ويصيب منها وابنه ميت ؟ فذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله فعلت زوجتي كذا وكذا، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن قال له :

((بارك الله لك في ليلتك ، وأثنى على زوجتك))

وأنجب منها في هذه الليلة ولداً سماه عبد الله ، ولد له تسعة أولاد ممن حفظوا كتاب الله . هذا معنى إذا الإنسان حضر عقد قران الدعاء النبوي :

((بارك الله لكما وعليكما وفيكما))

هذه البركة ، إذا أنعم الله عليك بولدٍ صالح ينفع الناس من بعدك فهو استمرارٌ لك ، فهو ذخيرةٌ لك ، فهو العمل الذي لا ينقطع بالموت .

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى .

والحمد لله رب العالمين

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أيها الأخوة الأكارم ؛ إتماماً لهذا البحث : الحليب ؛ حليب الأم الذي جعله الله عزّ وجل هبةً ، ومنحةً لهذا الطفل الصغير . وهب الله سبحانه وتعالى الصغار رحمةً أودعها في قلوب أمهاتهم ، وفضلاً عن رحمة الأمهات بأبنائهن ، التي هي في الحقيقة رحمة الله بهم، جعل المرأة يسيل ثديها حليباً من نوعٍ خاص . فلبن المرأة - كما يقول العلماء - مبهزٌ ، ومدهش ، تعجز عن تركيبه بخصائصه قوى البشر ولو اجتمعت ، وتعجز عن صنعه أضخم المعامل ولو تظاهرت . تركيبه دققوا . . . تركيبه في تبدلٍ مستمر ، بحسب حاجات الرضيع، ومتطلباته بحسب احتمال أجهزته ، وأعضائه ، وهو أكثر ملاءمةً ، وأكثر تركيزاً ، وأكثر احتمالاً، وأقلُّ ضرراً ، وهو آمن طرق التغذية ، من حيث الطهارة والتعقيم ، إذ يؤخذ من الحُلْمَة مباشرةً ، من دون التعرُّض للتلوث الجرثومي ، وحرارته ثابتةٌ ، خلال الرضعة الواحدة ، ويصعب توافر هذا الشرط في الإرضاع الصناعي ، وفوق ذلك فهو لطيف الحرارة في الصيف ، دافئ في الشتاء ، وهو سهل الهضم ، لا تتجاوز فترة هضمه عن الساعة والنصف ، بينما تزيد فترة هضم حليب القوارير عن ثلاث ساعات ، والطفل الذي يرضع من ثدي أمه ، يكتسب مناعةً ضد كلِّ الأمراض ، لأنَّ في حليب الأم موادَّ مضادَّةً للالتهابات المعوية ، والتنفسية .

حالات الربو ، ربو الأطفال ، إنتان الأمعاء ، هذه الأمراض الشائعة في الإرضاع الطبيعي ينجو منها الصغير .



إعطاء المولود حليب الأم فيه فوائد لا تعد ولا تحصى

وفي حليب الأم مواد تمنع التصاق الجراثيم بجدار الأمعاء ، وفي حليب الأم مواد حامضية لقتل الجراثيم ، والإرضاع الوالدي يقي من أمراض الكوليرا ، والزحار ، ومن أمراض شلل الأطفال ، والكزاز ، لأن مناعة الأم كلها في حليبها ، وهو يقي المرضع من أورام الثدي الخبيثة ، هذه الظاهرة المنتشرة في معظم أنحاء العالم ، سرطان الثدي ،

وإرضاع الطفل من ثدي أمه يقي الأم من أورام الثدي الخبيثة ، وبقي الرضيع من الآفات القلبية ، والوعائية ، وأمراض التغذية ، والاستقلاب ، بل إن الفطام السريع يحدث رضاً نفسياً ، وانحرافات سلوكية . وحليب الأم سهل التحضير ؛ ليلاً ، ونهاراً ، في السفر ، وفي الحضر ، لأنه جاهزٌ دائماً

، بالحرارة المطلوبة ، وبالتعقيم المثالي ، وبالسهولة في الهضم ، ولأن فيه المناعة التي تقي معظم الأمراض ، قال الله تعالى :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

[سورة البلد : ٤-١٠]

هدية من الله . .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

قال عكرمة وابن المسيب : " النجدان هما النديان " ما الذي يمنعه من أن يطيع الله عز وجل ؟ ما الذي يمنعه من أن يكون مؤمناً ؟ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ، لذلك قال بعض العارفين :

تداركتنا باللطف في ظلمة الحشا و خير كفيل في الحشا قد كفلتنا
وأسكنت قلب الأمهات تعطفاً علينا وفي الثديين أجريت قوتنا

وهذا موضوع الخطبة كلها ، أسكن في قلب الأمهات رحمةً ، وأجرى في صدورهن حليياً ، رحمةً معنويةً ، وغذاءً طبيعياً .

وأنشأتنا طفلاً وأطلقت ألسناً تترجم بالإقرار أنك ربنا
وعرفتنا إياك فالحمد دائماً لوجهك إذ ألهمتنا منك رشدنا

الدعاء :

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين ، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، وآمننا في أوطاننا ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخياً وسائر بلاد المسلمين ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، ولا

تهلكنا بالسنين ، ولا تعاملنا بفعل المسيئين يا رب العالمين ، اللهم بفضلك ورحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيد ولائهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين